أعلام المذهب المالكي وتأليفهم في القرن الرابع الهجري بالمغرب الكبير

أ. عبد المالك مغشيش
جامعة الطارف - الجزائر

ملخص البحث باللغة الانجليزية

Witnessed the Islamic Maghreb with the entry Alobeidan at the end of the third century AH, strife and unrest and conflicts multilateral, cross-cutting interests, conflicting ideas. Try Alobeidion establishing the doctrine of Shiism and the persecution of the doctrine of the Sunnis and the community in various forms and means., But scientists Maliki school Anbroa them in various ways and forms Sometimes the tongue and other Balsnan, Vtaddt resistance initiate dialogue and debate and Almnefrat, literature, poetry, writing ... to participate in the wars that have defined the region.

And all the pictures that you have defined resistance area, not enjoying the Abidiin place in spite of their quest in it in various ways, but in the latter decided to leave and turned upside down to return to the doctrine of Imam Malik throughout the Islamic Maghreb, thanks to the people of Morocco tackle them.

مقدمة:

يعتبر ولوج أهل المغرب الإسلامي ميدان تدوين المعارف والعلوم وجمع التراث الشفاهي وترتيبه، من دلائل النضج الفكري في القرن الرابع الهجري ومن علامات العطاء وبعد التفكير، ومع كون الصياغة التأليفية في المذهب المالكي عامة. تدخل في هذا الباب من التعبير الفكري، فذلك يدل على تطور حاسم في مسيرة نموه بالمغرب الإسلامي .

ومما يجدر الإشارة إليه كون حركة التأليف والجمع والتدوين كانت قد بدأت في المغرب قبل هذا العهد بزمن ليس بقصير، وهذا ما يخص جمع الأحاديث النبوية الشريفة وتفسير القرآن لكن

لا يمكننا تصنيف تلك المصنفات في مصف الحركة التأليفية الكبيرة، لكونها كانت محدودة. ولذلك نعتبر أن بوادر حركة التأليف أو التدوين بدأت في هذا القرن، وقد اتسع نطاق هذه الحركة في هذا القرن خاصة ما تعلق منها بالجانب الفقهي بالإضافة للأنواع الأخرى .ومن خلال مقالنا سنحاول إبراز أبرز علماء وفقهاء المذهب المالكي، والعمل على كشف أهم تصانيفهم وقيمتها العلمية.

ـ نشأة المدرسة المالكية بالمغرب الإسلامي(إفريقية):

حل الصحابة والتابعون إلى افريقية وهم يعتمدون في استنباط أحكامهم وحل مشاكلهم على الأخذ من القران والسنة النبوية ومن أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، أو الاجتهاد عند تعذر ذلك.

وسارت الحركة الدينية على هذا المنهج ردحا من الزمن، إلى أن انفصلت العلوم عن بعضها البعض في رقي وازدهار كالفقه والتفسير والقراءات واللغة وغيرها إلى علوم متميزة وتفرغ لها دارسوها بالتدريس والتدوين، على أن الثقافة الدينية عند المغاربة هي الغالبة وجمهورها الأعظم، واشتهرت بلاد المغرب كما قال "أحمد أمين"في مختلف عصورها بالحديث والفقه وبقية العلوم النقلية أكثر من اشتهارها بغيرها من العلوم[1]. وقد مرت الثقافة الدينية للمغاربة بعدة أطوار منها:

الطور الأول: ويمتد من الفتح الإسلامي إلى سنة 132هـ تقريبا [2]، ويمتاز بأن علمائه كانوا رواة ونقلة في أمور الفقه والتفسير والحديث وغيرها، وهم في معظمهم من الوافدين على المغرب من الصحابة والتابعين، وكان سعيهم الجاد نحو خدمة الثقافة الدينية ونشرها بين أبناء المغرب، وصبرهم المتين في طلب العلم، وتدريسه، ومن أشهر رجال هذه المرحلة، بعثة سيدنا "عمر بن عبد العزيز"، وكانوا عشرة رجال، أنيطت إليهم مهمة جليلة تمثلت في تعليم أهل المغرب الدين الإسلامي واللغة العربية .

الطور الثاني: وامتد من سنة(132إلى 184هـ) [3]، وامتاز هذا الطور بظهور طائفة من العلماء والشيوخ المتبحرين في العلوم الدينية، كما أمتاز بخصائص هامة تجلت في: محاولة التخصص في

الفقه وعلوم القران، التقيد بمذهب الإمام مالك أو مذهب أبا حنيفة، ظهور بوادر للتأليف في الفقه وعلم العقائد.

ومن علماء هذا الطور نذكر: عبد الرحمن بن زياد، أبو كريب المعافري، ابن فروخ، أبو زكريا يحي بن عمر (ت189هـ) له كتب عديدة منها: الصراط، الميزان، الرد على الشافعي ...

الطور الثالث: ويمتد من سنة (184هـ إلى 296هـ) [4]، ويمتاز هذا الطور من الناحية السياسية بظهور الدويلات الثلاثة في المغرب الأغلبية بتونس الرستمية بالجزائر الإدريسية بالمغرب الأقصى وينتهي بسقوطها وقيام الدولة العبيدية، ومن خصائص هذا الطور أنه اقترن به شعور جديد هو شعور الاستقلال والروح الوطنية، وهو بداية للخصوصية المغربية في جميع مناحي الحياة، فعد بذلك عصر نهضة ثقافية وفكرية، وتخصص العلماء فيه كل حسب ميوله، والتف طلبة العلم حول حواضر هذه الدويلات خاصة كلا من القيروان وتيهرت، فالقيروان أصبحت منارة للعلم والعلماء وحج إليها الكثير من طلبة العلم من جميع أصقاع العالم الإسلامي، من الأندلس وصقلية وطرابلس...كما استقل المغاربة بكتبهم الفقهية كمدونة سحنون، ظهرت تآليف بيداغوجية كآداب المعلمين "لمحمد بن سحنون"، ومشاركة المرأة المغاربية في التدريس كما هو الحال بالنسبة "لخديجة بنت سحنون" التي كانت تدرس في حلقة خاصة بها، وشيوع الرحلات العلمية بين أفراد المجتمع وطلبة العلم والعلماء من أجل الاستزادة في العلوم والمعارف، وكانت لهذه الحركة العلمية النشيطة أثرا كبيرا على الجانب الديني والفقهي خاصة وأن أهل المغرب أشد تمسكا وحبا في الدين لذلك اتجهوا إلى دراسة العلوم الدينية والتخصص فيها على حساب بقية المجالات العلمية الأخرى، ومن هنا ظهر الاتجاه الفقهي النشيط، الذي تحلى به الفقهاء، مما نتج عنه وفرة في التآليف الفقهية وتأثيرها على المجتمع ومختلف طبقاته، حتى صار الفقيه رجل قنون وإمام ومفتيا ووواليا يحترمه الخاص والعام .

ومن علماء وفقهاء هذا العصر نجد: "أسد بن الفرات"(213/142هـ) صاحب المدونة الأسدية، كان متحررا في دروسه يمزج بين أقوال فقهاء المذهبين، المالكي والحنفين وهو فاتح

صقلية.سحنون(240/160هـ)(أبو سعد سحنون بن سعيد واسمه عبد السلام)، وهو فقيه مالكي، صاحب المدونة المشهورة في المذهب المالكي، أحمد بن محرز القاضي، أبو الوليد ابن قطن اللغوي، محمد بن سحنون ....ابن الصغير، ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي، أبو حفص التهرتي، اسحاق الملشوني، الفضل بن سلمة البجائي ...و غيرهم.

الطور الرابع: ويمتد من سنة(296الى سنة 547هـ) [5]، وهو الطور الذي اتسم بالتحول السياسي والمذهبي في القرن الرابع الهجري وامتد مع خروج العبيديين من المغرب سنة 362هـ، واستمرار المذهب الإسماعيلي في حكم البلاد في النصف الثاني من القرن الرابع في العهد الصنهاجي، ومن ثم الانقلاب المذهبي وعودة المذهب المالكي إلى أرجاء المغرب الإسلامي بداية مع "حماد بن بلكين" في الجزائر مع بداية القرن الخامس الهجري(405هت) وبعده استئصال الشيعة من المغرب من قبل"المعز بن باديس الصنهاجي" .

وامتاز هذا الطور، بالاضطراب العقدي في العهد العبيدي وأول عهد بني زيري، بما لحق من اضطهاد بالمجتمع السني وعلمائه، ولحق بهم الأذى الكبير بعد أن وقفوا في وجه العبيديين بما بدلوا فيه من عقائد الناس، وقد حاول العبيديون حمل الناس على التشيع جبرا ردحا من الزمن لكنه فشلوا في ذلك، لإصرار أهل المغرب على أتباع السنة والمذهب المالكي لأنهم تربوا عليه منذ أن وطأت أقدام الفاتحين أرضهم.

كما امتاز أيضا بشيوع المناظرات بين دعاة الشيعة وأهل السنة، واتساع الأبحاث الفقهية وغيرهما من علوم الدين.

ظهرت المدرسة المالكية الحجازية على يد صاحبها مالك بن أنس (179/93هـ)، الذي ولد بالمدينة، وبها تعلم وعلم وألف واشتهر بأنه حجة في الحديث، ويتلخص مذهبه في الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة، واستخدام الرأي لاستنباط الأحكام الشرعية منها، أو بعبارة أوضح يمتاز "بالتزامه بالقرآن والحديث والابتعاد عن التأويل والاقتصاد في القياس ما أمكن"[6].

كان إقبال طلبة المغرب الإسلامي على مجالس الإمام مالك، نابع من أساس مكاني ألا وهو مدينة رسول الله حيث في عرفهم أقرب إلى روح الإسلام ممن يدرسون في أماكن أخرى كالكوفة أو البصرة أو الشام، بالإضافة إلى أنه يلتزم بالكتاب والسنة، ولا يفتي إلا بحذر شديد، وبعد جهد جهيد في التنقيب عن المسألة في آيات الكتاب الكريم وصحيح الحديث، فكان هذا المنطلق منه دافعا قويا لإعجاب أهل المغرب به، وعدوه إمامهم المفضل، ومثلهم الأعلى في تفكيره وعمله وسلوكه، وحتى في ملبسه، كما أعجب بهم، وبتفوقهم وذكائهم ونجابتهمو أعتبر القيروان عاصمة علمية بعد المدينة والكوفة.

و لعله تبادر إلى أسماعهم عن طريق التواتر تلك الوصية الخالدة، التي أدلى بها سيدنا "عقبة بن نافع" على أبنائه وكل رعاياه، كي تستقيم أخلاقهم وتخلص أعراضهم من كل شين وتفصح ألسنتهم، يقول فيها " يلبني، إني بعت نفسي من الله ولا ادري ما يقضي عليَّ في سفري . يا بني، إني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إملأوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله ن وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ويدلكم على مكارم الأخلاق، وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل... ولا تأخذوا العلم من المغرورين فيفرقوا بينكم وبين الله، ومن احتاط سلم ونجا"[7]

ويعود الفضل في نقل الفقه المالكي كاملا إلى "علي بن زياد"– لم يكن مثله في عصره علما وفقها فقد كان أول من كتب مسائل الفقه والفتاوى التي تكلم بها مالك بن أنس –[8] الذي سمع عن مالك الموطأ، وأحضر معه نسخة منه إلى المغرب، وعُد بذلك أول من أدخله إلى إفريقية.

أقبل طلبة العلم على العالم والفقيه "علي بن زياد " ينهلون العلم عنه، ويسمعون الموطأ ويتفقهون على مذهب الإمام مالك، فكان ممن روى عنه الموطأ: "أسد بن الفرات"، و"موسى بن معاوية الصمادحي" وسحنون" وغيرهم.

وقد التزم الناس مذهب الإمام "مالك" منذ زمان الإمام "سحنون" الذي تأدب بأدب أهل المدينة في كل شيئ حتى في معاشه، والذي دون مدونته التي أصبحت الكتاب الثاني للمذهب بعد "الموطأ" في التزامها لطريقة إمام دار الهجرة، وتشبث المغاربة بالمذهب المالكي، وقام بحفظه من بعده تلاميذه ومن أخذوا عنهم، وتفانوا في التمسك به والدفاع عنه، رغم ما لحق بهم من صعوبات، وويلات كثيرة حلت بهم خاصة في القرن الرابع الهجري .

ـ أعلام المذهب المالكي في القرن الرابع الهجري:

نشط الفقهاء بالمغرب الإسلامي في هذا القرن، على دراسة الفقه المالكي وتدريسه والتأليف فيه، وعملوا جاهدين على رد محاولات الطمس التي انتهجها العبيديون والرامية إلى محو المذهب المالكي، بالرغم من الاضطهاد الكبير الذي لحقهم جراء الذود عن عقيدة أهل السنة ومذهبهم، فظهر عدد كبير من أعلام الفقه أحرار، ومجتهدون في المذهب، مع العلم أن منتصف هذا القرن يعد الحد الفاصل بين دور الأئمة أصحاب المذاهب المجتهدين وتلاميذهم الأولين المقلدين لهم، والدور الذي أخلد الفقهاء إلى العكوف على مذهب المجتهدين السابقين وخاصة الأئمة الأربعة، ومنه تخرج فقهاء تناولوا المذهب المالكي بالتدوين والشرح، وأقفلوا باب الاجتهاد.فشاع التقليد وكثر الجدل بين علماء المذاهب للاستطالة أمام العلماء .و بذلك عد القرن الرابع حدا فاصلا بين العلماء المتقدمين وأول المتأخرين.

وهناك عوامل عديدة أدت إلى ظهور جيل من الفقهاء والعلماء، الذين جادت قرائحهم وتبحروا في صنوف العلوم الشرعية المختلفة في المغرب الإسلامي في هذه الفترة الزمنية. ومن هذه العوامل الصراع المذهبي بين العبيديين دعاة الإسماعيلية وأهل السنة أتباع المذهب المالكي، ومحاولة الانتصار لكل فكرة من خلال التأليف وغيره من الأشكال العلمية الأخرى، محاولة صون المذهب المالكي وفقه من خلال التأليف لكي لا تأتي عليه الدعوات المغرضة من قبل الشيعة، حركة الهجرة من المغرب إلى المشرق والأندلس، حيث المذهب المالكي والاستزادة في العلم، دخول بعض العلماء المشارقة والأندلسيين حاملين معهم تجارب فكرية وثقافية وعلمية

معفرة بعبق المشرق والأندلس، هذه العوامل وأخرى هي التي ساهمت وأوصلت الفقه المالكي إلى درجة النضج في القرن الرابع الهجري، بعد أن مر بمراحل اتسمت بفقه مختلط بالحديث والتفسير في بداياته الأولى، إلى فقه متميز على يد ثلة من الفقهاء الكبار أمثال: "علي بن زياد" تلميذ مالك، و"أسد بن الفرات" و"سحنون" وابنه محمد وتلاميذهم.

ولقد حظي هذا القرن بنخبة طيبة من الفقهاء والعلماء، وسنورد طائفة من أبرز العلماء ومصنفاتهم التي وضعت في هذا القرن، لنمثل بها عن حجم الحركة الفكرية والفقهية وتنوعها، منهم:

– ابن أبي زيد القيرواني (310 –386 هـ) [9]: هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني النفزي، نسبة إلى قبيلة نفزة أو نفزاوة، ولد بالقيروان سنة(310 هـ).رحل ابن أبي زيد إلى المشرق وحجّ ومع من العلاء ثم عاد إلى القيروان، وقضى فيها معظم حياته.و لقد عنى محنة شديدة من الدولة العبيديّة التي سادت في المغرب الإسلامي وكانت وفاته في سنة 386 هـ

كان ابن أبي زيد من علماء القيروان في زمانه، وهو الذي لخص مذهب الإمام مالك، فسهل بذلك انتشاره، فأصبح يعرف "بمالك الصغير "، وهو مصنف مكثر له من الكتب: الرسالة (في الفقه)، كتاب النوادر(جمع فيه ما في أمهات الكتب الفقه على المذاهب المختلفة من المسائل ومن أقوال الفقهاء واختلافهم)، مناسك الحجّ (السنن–العقيدة)، مختصر المدوَّنة.كما كان له شعر بعضه شعر ديني .

– أبو العرب (250–333 هـ) [10]: محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي رافع لواء التاريخ والأنساب: كان جده تمام بن تميم، من أمراء إفريقية. وكان أبوه أحمد ممن سمع من شجرة بن عيسى، وسليمان بن عمران، وبكر بن حماد. وسمع أبو العرب من جماعة أصحاب سحنون، وأكثر رجال إفريقية. قال أبو عبد الله الخراط: كان رجلاً صالحاً، ثقة عالماً بالسّنن، والرجال، من أبصر أهل وقته بها، كثير الكتب، حسن التقييد، كريم النفس والخُلق. كتب بخطه كثيراً في الحديث والفق.يقال إنه كتب بيده ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة. وشيوخه تنيف على عشرين ومائة شيخ. سمع منه أبو محمد بن أبي زيد، والحسين بن سعيد، وابناه، والشذوذي، والناس.

وكان حافظاً للمذهب، معتنياً به. وغلب عليه الحديث والرجال، وتصنيف الكتب والرواية، والإسماع. وألّف طبقات علماء إفريقية، وكتاب عباد إفريقية، ومسند حديث مالك، وكتاب التاريخ، سبعة عشر جزءاً وكتاب مناقب بني تميم، وجزأين في موت العلماء، وكتاب المحن، وكتاب فضائل مالك، وكتاب فضائل سحنون، وكتاب الوضوء والطهارة، وكتاب الجنائز، وذكر الموت، وعذاب القبر، وكتاب عوالي حديثه، وكتاب في الصلة، وغير ذلك. ودارت عليه محنة من الشيعي. حبسه وقيّده مع ابنه، مرة بسبب بني الأغلب، والتهمة في السلطان.

وتوفي فيما قيل: يوم الأحد لثمان من ذي القعدة، سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وكان له ابنان: أبو العباس تمام، سكن إفريقية. وأبو جعفر تميم، سكن الأندلس، وروى بها كتب أبيه وغيرها.

– ربيع القطان (288 هـ–334 هـ) [11]: هو أبو سليمان ربيع بن عطاء الله ابن نوفل ينتسبون إلى قريش صلبه. وكان ربيع من الفقهاء المعدودين والعبّاد المجتهدين، والنساك أهل الورع والدين. كان عالماً بالقرآن وقراءته، وتفسير معانيه. حافظاً للحديث. عالماً بمعانيه، وعلله ورجاله. وغريبه. معتنياً بالمسائل والفقه. وكان عالماً بالوثائق، حسن الخط، أخذها عن أبي زياد. وكان عالماً باللغة والنحو. وكان يؤلف الخطب والرسائل، ويقول الشعر. وكان لسان إفريقية في زمانه في الزهد، والرقائق.وكان ممن عقد الخروج لغزو الروافض. وجد في ذلك، فقتل شهيداً رحمه الله تعالى، في وادي المالح، في حصار المهدية، لسنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.من كلامه: الدنيا أمل ووجل، والآخرة جزاء وعمل، ومتوسط بينهما أجل. ومن كلامه: لا ترضَ على نفسك في أمسك. وعظة لك، في سرور غيرك بالتغيير. وفي صفاته بالتكدير. وفي عزّه بالذل. وفي عقده بالحل. وكان يقول: أخبركم بالحازم العازم، الذي قال: هاؤم اقرأوا كتابيه. إني ظننت أني ملاقٍ حسابية .

– أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي[12]: من أئمة المالكية بالمغرب والمتّسعين في العلم المجيدين للتأليف، كان فقيها فاضلا، عالما، متفننا، مؤلفا جيدا.و كان يُنكر على معاصريه من علماء القيروان سُكناهم في مملكة بني عبيد وبقائهم بين أظهرهم، وأنه كتب إليهم مرة بذلك فأجابوه: اسكت لا شيخ لك.

– أبو عثمان سعيد بن محمد المعروف بابن الحدّاد (219–302 هـ) [13]: من أشهر فقهاء المالكية في الجدل والمناظرة، كان واسع الثقافة كثير الحفظ للشعر العربي مشهور ببراعته في الحوار، والظفر بخصومه، يستخدم هذه الطاقة الجدلية العاتية لإبطال عقيدة الإسماعيلية. أخذ عن سحنون ثم مال إلى المذهب الشافعي، كان عالما بالعربية واللغة وكان الجدل أغلب الفنون عليه، وقال عنه أبو العرب: كان عالما باللغة نافذا في النحو وكان يقول الشعر ويجيده، فمن ذلك (بسيط):

مَازِلْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَهْرِ مُعْتَجبَا حَتَّى انقَضَى عَجَبِي بَعْدَ الثَلاثِمَائَة

لا بَارَكَ الله في عامٍ وفي سنةٍ كانت لِشَّرِ زمانٍ كانَ مختبئة

وله تآليف كثيرة واشتهر بمناظرته للشيعة ومواقفه منهم معروفة. وتوفي سنة 302هـ.

– إسحاق السبائي (أبو إسحاق الفقيه) [14]: كان أبو إسحاق من العلم بالله وأمره في خطة، ما انتهى إليها أحد من أهل وقته، حتى لقد كان من بالقيروان من أهل العلم والدين، إنما ينظرون إليه، إذا نزلت الحوادث والمعضلات. فإن أغلق بابه، فعلوا مثله. وإن فتح، فعلوا مثله. فلما اشتد أمر بني عبيد، وفتح دعاتهم أبوابهم، ودعوا إلى كفرهم، قال أبو إسحاق لأصحابه: افتحوا باب داري، نأخذ في ذمهم، والتحذير منهم. توفي الشيخ أبو إسحاق، سنة ست وخمسين وثلاثماية. مولده سنة سبعين ومائتين.

– أبو القاسم بن محرز[15]: من علماء القيروان نبغ واشتهر في فن المناظرة وخاصة في مسائل الخلاف.

– أبو بكر ابن اللباد (ت 333هـ) [16]: كانت منزلته في الفقه المالكي كبيرة، ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذات عن مذهب أهل السنّة . وكان فصيح اللسان، رقيق القلب، واشتهر بحفظه وسعة علمه، وجدّ في نشر المذهب المالكي بالمغرب، وسجنه الشيعة لغضبهم عليه، واستمر في نشاطه العلمي والديني إلى أن توفي سنة (333هـ). وأشهر مؤلفاته هي: فضائل مالك بن أنس، فضائل مكة، كتاب الطهارة، الآثار والفوائد في عشرة أجزاء.

– **أبو ميمونة دراس بن اسماعيل الجراوي الفاسي (ت 357هـ)** [17]: هو أول من أدخل فقه مالك إلى المغرب الأقصى بعد أن كان أهله على مذهب "أبي حنيفة" وكان من الحفاظ المعدودين ومات بفاس.

– **القابسي علي بن محمد المعروف بابن القابسي**[18]: كان واسع الرواية عاما بالحديث ورجاله، فقيها، أصوليا، متكلما، مؤلفا جيدا، له تآليف كثيرة منها: الممهد في الفقه، المنقذ في شبه التأويل، كتاب رتب العلم وأحوال أهله.

– **أبو القاسم خلف بن أبي القسم الأزدي المعروف بابن البراذعي**[19]: كان من كبار أصحاب "ابن أبي زيد القيرواني"، وأبي الحسن الفاسي، ولم تحصل رئاسة بالقيروان لتساهله مع الشيعة، فكرهه علماء القيروان وأفتوا بعدم قراءة كتبه ما عدا التهذيب لشهرة مسائله، وخرج من القيروان واستقر بمصر إلى أن توفي فيها.

– **أبو القاسم محمد بن عامر بن إبراهيم الفزاري (ت345 هـ)** [20]: ولد وعاش بالقيروان كان أبوه شاعرا ونحويا من أهل القيروان وتقلّد جباية الخراج للعبيديين في بعض أعمال الساحل الإفريقي فهرب بالمال إلى مصر الإخشيديّة، وعرف عنه أنه كان مناهضا للعبيديين إما مباشرة كالهجاء الصريح، وإما بواسطة الإشادة بفقهاء القيروان وصلحائها، ومات في خلافة المعز سنة "345هـ" ومما قال في القصيدة الرائية في هجو بني عبيد(وافر):

عجبــتُ لفتنــةِ أَعمــتْ وَعَمَّــتْ يقــومُ بِهَــا دَعِــيٌّ أو كَفــورُ

– **أحمد الوهراني (ت341 هـ)** [21]: وهو أحمد أبي عون قاضي من علماء الفقه المالكي ولد ونشأ وتعلم في وهران ولي القضاء فيها، رحل إلى قرطبة وتوفي بها .

– **إبراهيم بن عبد الرحمان التنسي (ت 387 هـ)** [22]: عالم بالفقه المالكي ولد وتعلم بتنس، رحل إلى الأندلس واستقر بمدينة الزهراء، وأخذ عن مشاهير علمائها ثم ولي الإفتاء بها، وبقي هناك إلى أن وافاه أجله.

– **قاسم بن موسى الضني (ت 390 هـ)** [23]: عالم بالحديث، من فقهاء المالكية ولد ونشأ وتعلم بمدينة الجزائر، رحل إلى الأندلس وجلس إلى التدريس في قرطبة روى عنه بعض علماء الأندلس وأثنوا عليه .

– **زكريا بن أحمد الغساني (ابن الأشج)(310 – 393 هـ)** [24]: عالم فاضل، محدث ولد ونشأ وتعلم بتهرت رحل مع عائلته إلى الأندلس سنة (326 هـ) ومنها رحل إلى المشرق، التقى هناك المتنبي وأخذ عنه ديوان شعره رواية، ثم عاد إلى قرطبة حيث توفي هناك .

– **أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان التاهرتي (أبو الفضل)(309 – 395 هـ)** [25]: عالم بالحديث، حافظ له، من الزهاد، ولد في تيهرت، ورحل مع أسرته إلى الأندلس سنة (317 هـ) وهناك تعلم، ونشأ، وأخذ على أشهر علماء عصره وعرف بالتقوى والورع والصلاح.

– **الوهراني عبد الرحمان بن عبد الله بن خالد، المعروف بالتجاني وبابن الخزار توفي(409 هـ)** [26]: من كبار فقهاء المالكية في عصره، عارف بالحديث، ورجاله، له عدة اهتمامات بعلوم عصره، ولد ونشأ وتعلم في وهران، ثم رحل إلى تونس وأخذ عن علمائها ومصر فالحجاز والعراق وخرسان، والجبل وبيشاور دامت رحلته ما يربو عن عشرين سنة روى عنه الإمامان "ابن عبد البر" و"ابن حزم".

– **أحمد بن علي بن أحمد أبو العباس البغائي(345 هـ – 401 هـ)** [27]: من أكابر علماء المالكية في الفقه من أهل باغية حيث ولد، ثم رحل إلى المشرق، واستقر بمصر ودخل الأندلس سنة 376هـ وجلس إلى التدريس في قرطبة استادبه المنصور بن أبي عامر لابنه عبد الرحمن رقي إلى خطة الشورى في عهد المؤيد بالله هشام بن الحكم سنة 400هـ .

– **الطبني محمد بن الحسين أبو عبد الله (300 – 394 هـ)** [28]: وهو شاعر بليغ، أديب بارع ينحدر من بيت أدب وفضل وحكم، من أهل طبنة، عاصمة الزاب واليها ينسب، رحل إلى الأندلس سنة (323هـ) فكان من شعراء الخليفة الأموي الأندلسي الحكم بن عبد الرحمان

النار(300 – 366 هـ)، قال عنه أحدهم " لم يصل إلى الأندلس أشعر منه، توفي بقرطبة وشاهد جنازته عبد المالك بن أبي عامر " .

– **سعيد الوهراني (ت 375هـ)** [29]: محدث وفقيه، عالم من كبار فقهاء وقته تعلم بوهران، رحل الوهراني إلى المشرق واتصل بكثير من علمائه ودخل بغداد وأقام مدة طالبا للعلم ثم قفل راجعا إلى مسقط رأسه حتى تفرغ للتدريس .

– **أبو الحسن اللخمي (ت472)** [30]: فقيه مالكين محدث وأديب، له تآليف عديدة منها: التبصرة على المدونة، من طلبته: أبو عبد الله المازري وأبو لفضل النحوي .

– **الفضل بن سلمة البجائي (ت319هـ)** [31]: فقيه حافظ، من أهل بجاية ارتحل القيروان وأخذ عن شيوخها، ذاع صيته فقصده طلبة العلم من كل مكان وأخذوا عنه، وتخرج على يديه طائفة من رجال الفقه منهم: أبو سلمة، سعد بن عثمان، ومحمد الخولاني، وأبو العرب، من تآليفه كتاب جامع المسائل الموازية، والمستخرجة .

– **الشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي(ت402هـ)** [32]: كان إماما فقيها محدثا، مؤلفا، له حظ من علوم اللسان، وقف ضد الشيعة العبيدين وكفر كل من يدعو لهم على المنابر، أخذ عنه كلا من: أبو بكر بن أبي زيد القيرواني، وأبو عبد الله البوني، من تآليفه: شرح الموطأ، الواعي في الفقه، النصيحة في شرح البخاري، كتاب في تفسير القرآن اعتمد عليه "عبد الرحمن الثعالبي" في تفسيره الجواهر الحسان، وله أيضا الأصول ...وغيرها، توفي بتلمسان سنة "402 هـ".

– **أحمد بن خلوف المسيلي (ت393هـ)** [33]: يكنى أبا جعفر، يعرف بالخياط، كان فقيها عالما بالمسائل حافظا لمذهب مالك، حسن التكلم في الفقه، سكن الثغر بالأندلس أعواما كثيرة مجاهدا وكان منسوبا إلى البأس، استقر بقرطبة وبها توفي سنة393هـ .

– **أبو بكر الوهراني (ت430هـ)** [34]: كان فقيها محدثا جليلا متصرفا في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم، وكانت عنايته بالحديث أكثر من غيره، توفي سنة 430هـ

– **إبراهيم بن محمد الشيباني**[35]: الكاتب، من كتبه "سراج الهدى" في معاني القرآن وإعرابه، و"مسند في الحديث"، و"قطب الأدب" و"لقط المرجان".

– **أبو الحسن المنمر: (ت430هـ)** [36]: من طرابلس ولد سنة 348هـ، ونشأ بها حافظا للقرآن، ارتحل بعدها إلى المشرق، وعاد إلى موطنه فكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث والنحو واللغة وله تآليف منها، "الكافي في الفرائض"، توفي بطرابلس سنة 430هـ.

– **أبو جعفر أحمد بن خلف الأجدابي(ت390هـ)** [37]: فقيه بارع وأديب متميز، كان صالحا فاضلا جليلا، توفي سنة 390هـ.

– **أبو علي المسيلي (حسين بن محمد بن سلمون ت431هـ)** [38]: فقيه مالكي، كما له اهتمامات أخرى بعلوم عصره، ولد ونشأ بالمسيلة، ثم رحل إلى لأندلس فولاه سليمان بن الحكم الشورى بقرطبة، وتوفي بها .

ومن خلال هذه النماذج لأعلام المغرب التي حاولنا أن نبرز أهمهم وأعظمهم وأن نبين مدى سعة هذا القرن بأعلامه الأفذاذ، وبتراجمنا لهذه الطائفة من العلماء الفقهاء نعطي تصورا مقبولا للحركة الفكرية والفقهية في القرن الرابع الهجري، ومنه نحاول الكشف عن الجهد العظيم الذي أخذه علماء المغرب على عاتقهم لحفظ وصون الموروث الحضاري للأمة والمتمثل في المذهب المالكي وفقهه، ومن خلال انتاجهم التأليفي في هذا المجال.

ويمكن لنا أن نذكر أبرز مصنفات الفقه المالكي في هذا القرن، وأشهرها: كتب "محمد بن سحنون" منها: كتاب "لنوازل" أو المسائل، وجعل كل حادثة من الحوادث التي تجري في عصره، مع تصورها بالملابسات العارضة محلاً للنظر في كيفية انطباق حكم المقرر في "المدونة" على تلك الصورة، بحيث إن حكمها يؤخذ من المصدر الذي هو من أثر دور التفريع.

وسار على نفس النهج الإمام "محمد بن أبي زيد القيرواني" في كتابه""النوادر والزيادات" مستفيدًا مما سلفه، وما دون من كتب في المذهب، كـ "المدونة" لسحنون،

و"الواضحة" لابن حبيب، و"المستخرجة" للعتبي، و"الموازية" لابن المواز.وهذا ما أكده "ابن خلدون" بقوله: وجمع "ابن أبي زيد" جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب "النوادر"؛ فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل "ابن يونس" معظمه في كتابه على المدونة. وله الرسالة (في الفقه)، مناسك الحجّ (السنن-العقيدة)، كما اختصر "ابن أبي زيد" المدونة في كتابه "المختصر"، ولخصه أيضا "أبو سعيد البرادعي" من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بـ "التهذيب"، وألف "ابن يونس" كتابه "الجامع" على غرار كتاب "النوادر والزيادات".و" لأبي العرب" مجموعة من الكتب الفقهية منها: كتاب الوضوء والطهارة، وكتاب الجنائز، وذكر الموت، وعذاب القبر، وكتاب عوالي حديثه، وكتاب في الصلة و"لأبي بكر اللباد": كتاب الطهارة، كتاب الآثار والفوائد في عشرة أجزاء.و "للقابسي علي بن محمد المعروف بابن القابسي" الممهد في الفقه، المنقذ في شبه التأويل، كتاب رتب العلم وأحوال أهله. "وابن البراذعي" له كتاب مشهور هو" التهذيب" "أبو الحسن اللخمي" له "التبصرة على المدونة" والفقيه الفضل بن سلمة البجائي، له كتاب "جامع المسائل الموازية "، و"المستخرجة ". "الشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي" له عدة كتب منها: شرح الموطأ، الواعي في الفقه، النصيحة في شرح البخاري. "أبو الحسن المنمر" "الكافي في الفرائض".

ومن هنا فقد حاولنا أن نحدد أهم المراحل التي مر بها الفقه المالكي في المغرب الإسلامي منذ الفتح الإسلامي إلى القرن السادس الهجري تقريبا، وذكرنا أهم أعلام المذهب المالكي وأبرز محطات حياتهم العلمية، وأهم تآليفهم في القرن الرابع الهجري، وبيّنا أن دخول الفقه خصوصا وشتى العلوم عموما ميدان التدوين، والتأليف وأصبح أداة بواسطتها يتم جمع وتسجيل التراث وحفظه من الضياع والنسيان لما شهدته الفترة من حروب وفتن شغلت الناس عن التفكير والحفظ.

كما كانت غاية العلماء والفقهاء من مصنفاتهم ومؤلفاتهم المختلفة الفقهية خاصة، تعليمية تربوية دعوية للأحادية المذهبية، ولاشك أنه لو كتب لبلاد المغرب أن تتمتع بحقبة طويلة

من الاستقرار والأمن اللذين هما أساس كل عمران ورخاء وشرط كل نهضة في العلوم، لأمكن له أن يبلغ درجة عالية من التحضر والتفوق العلمي والفكري، ويمكننا أن نصل إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

- تعرض فقهاء المذهب المالكي على يد العبيديين وأعوانهم إلى شتى صنوف الضغط والقمع والترهيب؛ من سجن وقتل وتعذيب وتهديد... فصمدوا وتحملوا، حتى ذهب العبيديون، وبقي المذهب المالكي قويا راسخا.

- معظم ما وصلنا كان يمثل جزءًا بسيطا، في حين لم يصلنا إلاّ القليل من إنتاجهم على الرغم من إشارات المصادر لعدة مؤلفات ولعدة مؤلفين.

- عُد القرن الرابع الهجري حدا فاصلا بين العلماء المتقدمين وأول المتأخرين.

- عرفت الحياة العقلية في القرن الرابع الهجري نشاطا أكثر، وتركت لنا مناظرات بين الفقهاء السنيين ودعاة الشيعة وأشهرها، مناظرات "سعيد بن الحداد". الفقهية.

-كانت غاية العلماء والفقهاء من مصنفاتهم ومؤلفاتهم الفقهية تعليمية تربوية دعوية، أساسها حفظ المذهب المالكي من الضياع، بعد الهجمة الشرسة من قبل العبيديين .

-انصراف المغاربة آنذاك إلى العلوم النقلية والإبداع فيها، وتقصيرهم في العلوم النظرية الفلسفة وفروعها.

الهوامش والإحالات:

1- رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى عين مليلة، ط3، 2000، ص47.

2- نفسه، ص49 .

3- ينظر: رابح بونار: المرجع السابق، ص69.

4- نفسه، ص111.

5- نفسه، ص، 175 .

6- عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1985، ص.40

7- رابح بونار: المرجع السابق، ص36 .

8- عبد العزيز المجدوب: : المرجع السابق، ص41.

9- ابن أبي زيد القيرواني: متن الرسالة، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د ط، د ت، ص1-4. (ينظر أيضا: أبو العرب: طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ط2، 1985، ص125 .القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب السالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج2، نشر مكتبة المشكاة، وزارة الأوقاف المغربية المغرب، د ط، د ت، ص415) .

10- أبو العرب: المصدر السابق، ص12 .(ينظر أيضا: القاضي عياض: المصدر السابق، ج2، ص 414 – 437.الذهبي: سِيَر أعلام النبلاء، ج 15، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط9، 1419هـ. ص 395.)

11- القاضي عياض: المصدر السابق، ص 481.

12- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د ط، د ت، ص236.(ينظر أيضا: القاضي عياض: المصدر السابق، ص 484).

13- أبو العرب: المصدر السابق، ص 249.

14- القاضي عياض: المصدر السابق، ج4، ص420. (ينظر أيضا: أبو العرب: المصدر السابق، ص511 .)

15- الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: تكملة أبي القاسم بن عيسى بن ناجي، ج3، تحقيق: محمد ماضور، مكتبة الخانجي، مصر-المكتبة العتيقة تونس،، د ط، د ت، ص229).

16- الذهبي: سِيَر أعلام النبلاء، ج7، ص148.(ينظر أيضا: القاضي عياض: المصدر السابق، ج2، ص315 رابح بونار: المرجع السابق، ص180)

17- الذهبي: تاريخ ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط2، 1414 هـ، ص 32-37.

18- رابح بونار: المرجع السابق، ص181-182.

19- أبو العرب: المصدر السابق، ص159.

20- نفسه، ص 161.(ينظر أيضا: محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص207-213) .

21- عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية فيما بين القرنين (14/3هـ)، د م ج، الجزائر د ط، 1995م، ص13.

22- نفسه، ص13.

23- نفسه، ص14.

24- نفسه، ص14.

25- نفسه، ص14.

26- نفسه، ص 15.

27- يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985، ص30.(ينظر أيضا: عمار هلال: المرجع السابق، ص 15.)

28- عمار هلال: المرجع السابق، ص16.

29- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، بيروت، ط2، 1980 ص 51.

30- رابح بونار: المرجع السابق، ص182.

31- نفسه، ص.184

32- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص30(.ينظر أيضا رابح بونار: المرجع السابق، ص 185.)

33- نفسه، ص185.

34- نفسه، ص278.

35- نفسه، ص278.

36- نفسه، ص278.

37- نفسه، ص278.

38- عمار هلال، المرجع السابق، ص19.